المحاضرة الثامنة

التحولات الثقافية في المجتمع

٢٠٠٧/٣/٦م (١٤٢٨/٢/١٧هـ)

الضيف/ الدكتور علي بن حمد الخشيبان

كاتب

مدير الندوة/الأستاذ ذاكر بن علي آل حبيل*

السيرة الذاتية للمحاضر:

- بكالوريوس في علم الاجتماع، كلية العلوم العربية والاجتماعية، جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية.
- ماجستير في علم الاجتماع، كلية الآداب جامعة الملك سعود.
- ماجستير في الإدارة التربوية من قسم الإدارة التربوية من جامعة بنسلفانيا الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية.
- دكتوراه في الفلسفة في تخصص السياسات التربوية من نفس الجامعة.
- مدير عام برنامج السياحة والمجتمع بالهيئة العليا للسياحة.
- عضو في العديد من المجالس والمراكز واللجان كمجلس إدارة مدارس رياض نجد الأهلية بالرياض، ومجلس التطوير التربوي بوزارة التربية والتعليم، ومركز التطوير التربوي بوزارة التربية والتعليم.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية، والبرامج الحوارية تلفزيونية وإذاعية.
- له العديد من البحوث والكتابات المختلفة في مجموعة من الصحف والمجلات السعودية. ويكتب حاليا مقالا أسبوعيا في صفحة الرأي بجريدة الوطن، وكان قد كتب في جريدة الجزيرة وأشرف على قسم الندوات فيها من عام ١٩٨٩-١٩٩٤م (١٤٠٩-١٤١٤هـ).

*كاتب وناشط حقوقي، وعضو اللجنة المنظمة للمنتدى

مقدمة مدير الندوة:

بسم الله الرحمن الرحيم، السلام عليكم جميعا ورحمة الله وبركاته.

الحديث عن الثقافة حديث متشعب، ويزداد هذا التشعب حين يتركز الحديث على طبيعة التحول الثقافي وأثره على التحولات الأخرى في المجتمع. ولأننا نعيش هذه الأيام ربيعا ثقافيا في المنطقة في ظل معرض الكتاب المنظم في العاصمة الرياض، فسيكون المعرض نموذجا تطبيقيا لمحاضرة الدكتور علي الخشيبان، وسيحدثنا فيها عن الثقافة كتعريف، وكمنتج اجتماعي وفكري له أبنيته، مستعرضا هذه الأبنية ودورها في دفع عجلة الثقافة في المجتمع، فأهلا وسهلا به.

نص المحاضرة:

قدمت إلى المنطقة الشرقية في رحلة عمل ضمن نشاط الهيئة العليا للسياحة التي أدير برنامجها السياحي العام. وبترتيب مع الأخوة، اتصل بي الأستاذ جعفر الشايب طالبا مني المشاركة في هذا المنتدى الذي أسعدني جدا حضوري فيه؛ لما وجدت فيه من نشاط واضح وملموس عبر ما يزودني به الأستاذ جعفر من رسائل الكترونية أسبوعيا. وكم هي كبيرة فرحتي لكوني الآن بين نخبة طيبة من الأخوة ذوي الأفكار النيرة الذين أحسب لهم حسابا كوني قرأت للكثير منهم، وأعرف طابع المنطقة الثقافي الذي يضمهم. وليسمح لي الجميع، فإن منطقة القطيف تعد من أكثر مناطق المملكة وعيا يشهد بذلك عدد المثقفين والأكاديميين والاختصاصيين في مختلف مجالات الحياة.

الحقيقة إن ارتباطي بالثقافة لم ينشأ من كوني مؤلفا، بل كاتبا في جريدة الجزيرة السعودية، وآنذاك، لم تسمح لي ظروف العمل بسبب السفر إلى أمريكا مبكرا لإكمال دراستي، ولكني أكملتها وعدت عام ٢٠٠٢م (١٤٢٢هـ) لأجد اهتماماتي في الكتابة قد نضجت، فبدأت كتابة مقال أسبوعي في جريدة الوطن. وأصدقكم القول أن الكتابة مرهقة، خصوصا إن كان متابعيها أمثالكم، وهذا ما أشعرني بأني في مأزق، فماذا أستطيع أن أقدم لكم غير محاولة بسيطة ربما تداركنا من خلالها قضية متزامنة مع حدث المملكة الثقافي هذه الفترة وأعني به معرض الكتاب الدولي في الرياض الذي أسس له منذ سنتين.

الواقع أن ثمة إشكالية تواجهني في حديثي عن الثقافة، لرغبتي الملحة في أن يوضح لي من أحادثه مفهومه للثقافة إن كانت مكونا اجتماعيا أو أداة فكر؛ فمن الدارج في مجتمعنا حين نتحدث عن إنسان مثقف أننا نعني كونه قارئ ذو رصيد معلوماتي ومهارات معرفية يستطيع من خلالها أن يكون حافظا أو لديه القدرة على القراءة والفهم؛ وذلك من أدوات الثقافة التي لا يكفي وجودها في إنسان ما أن نحكم عليه بالثقافة عموما، فالثقافة الكل هي مكون مختلف تماما لكل ما حولنا وما نتعامل معه مما هو جزء من ثقافتنا ومجتمعنا، ولكل مجتمع في الواقع ثقافة تميزه؛ ولذا ستلاحظون من خلال طرحي أن أتحدث عن جزئيتين:

عن الثقافة كمنتج اجتماعي بعاداته وتقاليده، وأبنيته الاجتماعية والاقتصادية، وعن أدوات الفكر التي نسميها ثقافة انطلاقا من التثقف، وهو زيادة المعرفة. وعندما أتحدث عن التحولات الثقافية في المجتمع، فإني

أقصد الجزئيتين وأثرهما في إعادة تشكيل الثقافة نفسها، تماما كما لو تحدثت عن قيمة قراءة كتاب ما، ثم تطرقت لأثر قراءته في الإنتاج الفكري على حياة القارئ الاجتماعية وانعكاسه على الثقافة بشكل عام.

الثقافة كتعريف، هي مدلول اتفق الجميع على أنه إنتاج بشري دائم الوجود مستمر، وهي بالمعنى الشامل كل الموجودات ذات العلاقة بالإنسان التي ينتجها ويجعلها محور اهتمامه. وليس لهذا الإنتاج البشري دلالة يمكن الحكم عليه بالتطور والتخلف من خلالها، لأن التشابه في وجود الثقافات يحول دون أن تتميز ثقافة عن أخرى بمكوناتها المتماثلة مع غيرها من حيث عناصر الثقافة التي تمثلها العادات والتقاليد والقيم، ولكن يمكن التمييز حقيقة بالنظر إلى مدى الوعي في تلك العناصر.

وأقدم تعريف للثقافة هو تعريف (إدوارد تايلور) بأنها كل مركب يشمل على المعارف والمعتقدات، كالفن والعادات والتقاليد، وكل القابليات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع معين. وهذا التعريف إطار شامل لا يكاد يتجاوز التعريف الذي قدمته، ولكنه يضيف عناصر أدق كنوع من الشمولية؛ حيث أن الثقافة قابلة لكل منتج إنساني، ولذلك هي ليست مسؤولة عن وعي الإنسان بمنتجه الثقافي، ولكن عن تشكيل منتجه الثقافي والمتمثل في أدواته التي يتحرك بها عبر التاريخ ويحمي نفسه من الانقراض عبرها.

يتساءل الكثير عن كون الثقافة سبب في تطور الإنسان أو تخلفه، وأقول أن الثقافة ما هي إلا منتج للإنسان، وبحسبه يجد الإنسان موقعه على الخارطة الاجتماعية، وهناك درجة للوعي تحدد مدى رقي هذا الإنسان بثقافته لمصاف معينة والعكس صحيح.

ويختلف تعريف الثقافة من فكر لآخر حسب المنهج الذي ينتهجه؛ فالفكر الماركسي، يرى أن الثقافة هي كل القيم المادية والروحية ووسائل خلقها ونقلها مما يستخدمه المجتمع. والحقيقة أنه تعريف يروق لي، لما أجد فيه من استمرارية الثقافة باستمرار الإنسان مما لا يمكن انقطاعه.

ما تقدم من تعريفات وغيرها يفرض سؤالا حول من تكون الثقافة؟ وأراها مكونات تحيط بالإنسان، صنعها لنفسه، وأنتجها فكره، لتساهم في تنظيم حياته الاجتماعية بالطريقة التي يقترحها ويتعارف عليها مع أقرانه من أفراد المجتمع، ولذلك يجعلها في إطار يستطيع تطويرها من خلاله أو يبقيها كما هي في سياق صنعها التاريخي.

وقد يختلط مفهوم الثقافة بمفهوم الحضارة، والواقع أنه لا يخلو مجتمع من ثقافة ما، في الوقت الذي تخلو فيه كثير من المجتمعات من الحضارات، ويختلف العلماء في عدد الحضارات على وجه الأرض،-وهي مع اختلافهم- لم تصل لعدد الثقافات في العالم، والتي تجاوز عددها الأقصى باتفاق العلماء ٢٦٠٠ ثقافة.

وقد ينظر لثقافة بلد ما، على أنها حضارته، وليس هذا ما يهمنا هنا؛ بل معرفة كيفية تحول ثقافة بلد ما إلى حضارة بنقلة جوهرية أدت إلى بروزها؟

الحقيقة، أن للإنسان مهما تدنت درجة ثقافته، فإن لديه من الوعي ما يجعله قادرا على تحديد الثقافة الأفضل له، وليس بجميع جزئياتها بطبيعة الحال. ونرى النقلة التي أحدثها الغرب في حضارته بالاستفادة من

الحضارات في مرحلة زمنية سابقة، هذه النقلة تفتح لمن يرغب مجالا للتنافس بين الحضارات لإجراء تعديل على مكوناتها الثقافية لتحسين التشبه معها، وهذا ما تفعله بعض الدول العربية مع الحضارة الغربية السائدة في عصرنا الحالي.

والعلاقة بين مكونات الثقافة وصنع الحضارة أساسية للقول بأنه ليس كل وعي ثقافي يمكنه أن يؤدي إلى حضارة بشكل مباشر. فصنع الحضارات حالة تصل بالثقافة إلى التغيير الشامل في عناصرها دون استثناء شيء من الماضي؛ لتبقى مكوناته في سجل مجتمعها التاريخي، يتذكرها أو يرغب في إعادتها، الأمر الذي قد يرفضه التشكيل الجديد للثقافة، ومن هنا، ينشأ الصراع بين أجزاء الثقافة من خلال أفراد المجتمع ومواقفهم المختلفة إزاء التحول في هذه الأجزاء.

إن ما ذكرته جميعا كان مقدمة لحديثي حول التحولات الثقافية في المجتمع، وسأستشهد عليها بمعرض الكتاب الدولي في الرياض الذي اختلفت ردود الفعل تجاهه.

تحولات المنتج الفكري والتجديد فيه، يعتبر من القضايا القابلة لإثارة الاعتراض، لكن الفكر أول الحصون التي تحاول الثقافة التقليدية الدفاع عنه من قبل الأفراد لاعتقادها أن مجرد تغيير الفكر يعد انقلابا على جزئية من التقليدية السائدة في مجتمع ما. ويميل علم الاجتماع الحديث لفكرة وجود سبب مهيمن للتغيير الاجتماعي، كما يميل للاعتراف بتعددية أنماط التغيير بمصادرها الخارجية والداخلية والمختلطة في كونها تأتي بخط مستقيم أو متعرج.

والحديث عن التحول يتطلب معرفة ما هو التحول، وهو كما جاء في معجم مصطلح العلوم الاجتماعية عملية هجر اتجاه أو نسق قيمي، وإحلال اتجاه أو نسق قيمي آخر جديد محله. وانطلاقا من هذا التعريف، يجب التفريق بين التحول والتغيير الذي يؤدي إلى حالة مختلفة من الإطار الثقافي أوسع مساحة من التحول الذي يعتبر جزئيا مهما بلغت درجته، فهو ليس عملية شاملة لأي ثقافة. ومدلوله أقل تأثيرا من التغيير، ولكنه يؤسس لحالة من الانتقال لمرحلة مختلفة في بناء العناصر الثقافية، وهو ليس بترف، بل سمة تناسب المجتمعات التقليدية لبحثها الدائم عن محاولات للتغيير وذلك عند اكتشافها لخلل في أحد أجزائها الاجتماعية يتمثل في مشاكل اجتماعية وتربوية. وتبحث الثقافة التقليدية عن وسائل التحول بطرق مختلفة نتيجة لإجبارها على التعامل مع الحضارة، وتتطلب هذه الشروط بيئة مناسبة، كالرغبة في الانفتاح الفكري.

وأخطر التحولات الثقافية في المجتمع، ما يمكننا أن نطلق عليه طفرة ثقافية، تلك التي تستعمل أدوات الثقافة المتحولة جغرافيا دون أن تدخل عليها عناصر جديدة تشير لتحول حقيقي في المكون المعرفي والقيم والعادات؛ مما يبشر بانهيار سريع لها. ذاك أن التغير الاجتماعي يحدث التغيير الثقافي وليس العكس.

لقد توصل (ملتون) إلى أن كل قيمة إنما هي نتاج اجتماعي توارثناه جيلا بعد جيل عن طريق أحد النظم الاجتماعية. ومن خلال ذلك، نستطيع أن نطلق على الأدوات المؤدية للثقافة بمفهومها المعرفي، كونها تعد نتاجا بشريا كالكتب والروايات، مع الإشارة إلى أن قيم الثقافة تتميز بأنها معتقدات مصدرها الثقافة والتفاعل الاجتماعي، كونها تعمل من خلاله وتسمح له بإبرازها أو تغيير بعضها بشكل دائم أو مؤقت لقدرتها على التواصل مع الأبنية الاجتماعية بطرق ووسائل مختلفة، مما يعني تأثيرها فيه تدريجيا حتى تشمله.

وحين أطبق ما تقدم على واقع معرض الرياض الذي أقيم عامي ٢٠٠٦،٢٠٠٧م (١٤٢٧،١٤٢٨هـ)، أجدني أتساءل إن كان قد أحدث تحولا، وكيف تم له ذلك؟ وعن الشروط التي يجب توفرها لإحداث ذلك التحول، فضلا عن أسئلة كثيرة يجب أن نسألها جميعا للدلالة على المدى الذي يقدم به المجتمع نماذجه الثقافية وطرق تحولها.

لقد عاش المجتمع في الفترات السابقة حالة فراغ ثقافي مفتقرا لمشروع اجتماعي ناضج أدى لتوقف جوانب كثيرة من ثقافته، حتى جاء معرض الرياض محدثا آثارا جانبية تمثلت في نهم ملحوظ يعكس جوعا ثقافيا حقيقيا في بعضه، ورغبة في اكتشاف جديد سمح بعد حظر في بعضه الآخر.

لقد بدا معرض الرياض في شكله كعملية بيولوجية في جسد اجتماعي بقي فاقدا لفيتامين معين فترة طويلة من الزمن، حتى إذا ظهرت آثار فقده الجانبية عللا، أصبح علاجها بالإشباع الظاهري عبر الطرق المسموحة أو الممارسة خفية للممنوع هو الحل.

الواقع، إنا نعيش درجة من الحظر أثرت كثيرا على تكوين ثقافتنا في زمن الثقافة المحظورة التي واجهت انقلابا تمثل في كثير من وجوه الثقافة، منها نموذج معرض الكتاب في الرياض عام ٢٠٠٦،٢٠٠٧م (١٤٢٦، ١٤٢٧هـ)، وأحداث كلية اليمامة.

ما حدث، ليس إلا تعبيرا عن انفتاح قد يكون غير محتمل بدرجة مباشرة للثقافة، وخطورته المتوقعة تكمن في أن الانفتاح الثقافي في محتوى المعرض من الكتب والمواد الثقافية لم يحدث بشكل تدريجي، الأمر الذي يخلق خطرا على الفئات المغيبة عن الوعي الثقافي، حيث يؤدي به إلى نوع من الهوة المعرفية متأثرا بعفوية بفكر مؤلف ما في ظل غياب خلفيته المعرفية حول هذا الفكر الذي قد يكون مغلوطا. ومن جهة أخرى، قد يبدي المجتمع ممثلا ببعض الفئات رفضا لهذا النوع من الإشباع الثقافي لما تعتبره فيه من خطر محدق بها، وهنا لابد من الحذر من خلق أبنية ثقافية قد تؤدي إلى تطرف التعاطي مع الثقافة، مما يؤدي إلى نشوء تيارات فكرية تنمو تحت السطح تعمل إلى عزل المجتمعات العربية والإسلامية عن الواقع الثقافي.

وأنا حينما أتحدث عن التدرج في الانطلاق فلست أدعو إلى التوازن في مناقشة القضية، فالفكرة أبعد من ذلك بكثير؛ إذ يجب أن لا تترك التحولات الجزئيات المكونة للثقافة لوحدها، بحيث يتم توفير دعم الأبنية والأنساق الاجتماعية الأخرى. فإذا ضمنا حصول معرض الرياض دعما من المؤسسات التربوية والإعلامية والثقافية، فسنكون بذلك قد وفرنا تهيئة مسبقة تتعود عليها الأجيال تراكميا وليس دفعة واحدة.

معرض الرياض، تظاهرة ثقافية لم تكن جديدة؛ ولكن الفرق الذي حدث مؤخرا وساهم في ظهورها وبروزها هو إيجاد مؤثر في البناء الاجتماعي، أدرك المتابع جدة شكله الثقافي الذي أطل برأسه من المعرض، حيث لم يقدم المعرض في دوراته السابقة جديدا على السائد الفكري، ولم تمثل امتداد حقيقيا لما هو موجود خارج قاعاته.

في العامين الأخيرين، حدث ما أستطيع تسميته بعملية الترميم السريعة عبر خلق فرصة جادة للتحول في الأبنية الثقافية، رغم عدم انقلابه على أي قيمة سياسية أو دينية أو اجتماعية أو أي واقع محظور. فقاوم جميع

محاولات الإجهاض المقترحة التي اتهمته بكونه جريمة ثقافية، وهذا الأمر أخطر ما يواجه الفكر وأدواته التقليدية. ولو تتبعنا أشكال الحرب على الأنشطة الثقافية في العقود الماضية للمسنا تطورا كان أبرزه الحرب على الشعر والرواية والقصة والحداثة.

وكمؤشر أدبي للتحول، تشير الإحصاءات لتزايد ملموس في الإنتاج الفكري في المجتمع خلال العامين الماضيين، وربما ساهم الشعور بالانفتاح في ذلك وإن كان مبطنا بالخوف والقلق. وقد قارب مجموع الإصدارات خلال العام الماضي المائة إصدار بلغ مجموع الروايات فيها اثنين وخمسين رواية، أربع وعشرون رواية منها لنساء، تسع عشرة امرأة منهن طرحن نتاجهن للمرة الأولى. وقد أثبتت الرواية أنها أقدر الأدوات الثقافية على كشف الواقع الاجتماعي بتشخيص أبعاده. ورغم ما قاله النقاد حول عدم نضج هذا النتاج، إلا إني أرى أن نضج الرواية في الإطار النقدي مرتبط بالنضج الثقافي للمجتمع.

وقبل أن أختم، أريد الإشارة لقضية الثقافة التي تنتج وتستورد في مجتمع واحد. فقد كشف لنا معرض الرياض معضلة النشر في مجتمعنا، حيث أصبح الكتاب السعوديون يطمحون إلى النشر عبر دور نشر خارجية تستوعبهم وتحتويهم. وهنا يفرض السؤال نفسه عن افتقادنا لمثل هذه المؤسسات؛ الأمر الذي يحتاج تحقيقه لتغيير في الأبنية الإدارية والبيروقراطية، وهذا ما أتمناه حقيقة لإيماني بخطورة تصدير المنتج المحلي للخارج ثم إعادة استيراده بعد إعادة تدويره أو حجز بعضه لهوى بيروقراطي.

ختاما أشكركم على حسن الاستماع، وأرجو أن أكون قد قدمت شيئا أكاد أجزم أنكم أعلم مني به، والسلام عليكم ورحمة الله بركاته.

الأسئلة والمداخلات:

الأستاذ زكي أبو السعود (كاتب وناشط حقوقي):

بعد شكري للدكتور علي على هذه المحاضرة القيمة، أبدي له إعجابي بتفاؤله الواضح لمستقبل المجتمع الثقافي، وأظن أن هناك ما يدعو فعلا للتفاؤل، منه على سبيل المثال إحالة الخلافات المتعلقة بالأدب والثقافة لوزارة الثقافة بدلا من وزارة العدل للحكم فيها، ومنه كذلك تنظيم معرض الكتاب في الرياض التي تفضلت بالحديث عنها؛ والذي تم فيه السماح بدخول كتب لم يكن ليسمح لها بذلك سابقا، ولكني رغم ذلك أستشعر بعض القلق لعدم وجود تشريع لهذه التظاهرة، الأمر الذي قد يسبب لها ارتدادا، فلا زالت هناك مقالات تحظر وكتاب يمنعون، ورقابة متسلطة تمارس، وقيود تفرض.

كلي أمل أن تتكرر هذه الظاهرة الثقافية في مختلف مناطق المملكة، وأن يتبنى هذا المشروع من قبل المؤسسات القادرة من أجل تحقيق انفتاح فكري.

المحاضر:

أنت تتفق معي على وجود خطوط حمراء؛ لكن ما أريد أن اطرحه لقضية أعيشها ككاتب في جريدة الوطن أنه حتى الخطوط الحمراء غير محددة، وهذه أكبر الإشكاليات.

الدكتور توفيق السيف (مفكر وكاتب):

إنها لفرصة طيبة أن ألتقي بالدكتور علي وأتعرف عليه وأستمتع بهذا الطرح الراقي والثري بالمعلومات والأفكار النيرة التي قد نتفق على قيمتها، ونختلف في درجة الأخذ بالفكرة الأصلية فيها وحتى أكون أكثر وضوحا سأتحدث في نقاط محددة:

أولا، في تحديد ماهية الثقافة، أظن بوجود مشكلة فهمين مختلفين، نحن نتحدث عن الثقافة عندما نقول أن الثقافة هي ما يجرده الإنسان من الأبنية الاجتماعية سواء اقتصاديا أو سلوكيا أو إعلاميا، ثم يحولها إلى قيم ومفهومات تتحول إلى ما نسميه بالثقافة؛ وهذه عملية تفاعل ذهني. وأحيانا نقصد بالثقافة حين ننطقها، الفكر الذي هو صناعة الثقافة أو ما يسمى بالفعل الذهني في اللغة الانجليزية؛ ولأن الذين يتحدثون في الثقافة يعتمدون على تعريفات تطورت في علم الاجتماع الغربي الصنع، فإن هذه التعريفات لا تتطابق مع تعريف تراثنا، وهنا تحدث الإشكالية في تعيين المفهوم.

ثانيا، تفضلت بقولك أن التغيير الاجتماعي يحدث تغييرا ثقافيا وليس العكس، ولست أفهم لماذا؟ كوني أرى التغيير الاجتماعي تغيير ثقافي بذاته، قد لا أرى ذلك إن عبرنا عن الفكر بالثقافة ليطرح السؤال نفسه حول ما إذا كان الفكر ينتج تغييرا اجتماعيا أم لا، أما الثقافة كعملية فعل ذهني فأنا أخالفك فيها الرأي.

ثالثا، افترضت تدريجية التغير الثقافي، وأتصور استحالة ذلك، وتجارب العالم خير شاهد؛ فالتغير الذي حصل في الولايات المتحدة الأمريكية بعد قيام الثورة الأمريكية، والثورة الصناعية، ودخول اليابان بعد الحرب العالمية الثانية في العصر الصناعي، كل تلك التحولات الثقافية حدثت عن طريق الصدمة والتحول الفجائي. وأعتقد أن من يقوم بالتغيير هم أشخاص لا مصلحة لديهم في الواقع السائد يريدون خلق مصلحة لهم، إذ لا مبرر لتغييرهم واقعا يستفيدون منه، وحين يحدث صراع بينهم وبين أصحاب المصلحة القائمة فسيكون باب التغيير قد انفتح.

المحاضر:

الحقيقة أنك اقترحت نفس الإشكالية التي بدأت أنا فيها وهي التساؤل حول ماهية الثقافة، وهي إشكالية يقع فيها الكثيرون باعتبار أن علم الاجتماع علم غربي، ولذلك أحاول جاهدا عندما أقدم أي فكرة أن أركز على أن يكون هناك فصل بين المعرفة و الثقافة.

بالنسبة إلى التساؤل حول من يغير الآخر، فهذه فكرة لم أطرحها هنا بشكلها المطلق، لأنني اخترت أن يكون معرض الرياض أنموذجا. لذلك، فكل ما طرحته من أفكار كان الدائرة التي دار حولها المعرض. وأراك قد ذهبت أبعد مما أردت أنا من إشارة إلى القلق الذي أحدثته الهوة الثقافية. وغم أني أتفق معك في أنه لم يقم بالتغيير من هو صاحب المصلحة، إلا إني لم أصل لهذه الفرضية في المثال الذي أدرسه كونه لا يزال وليدا صغيرا. ويبقى الاختلاف من أفضل الظواهر الصحية التي من الممكن أن تميز مجتمع من المجتمعات، ذلك أنه يخلق جوهرا حقيقيا لامعا مشعا يجتمع حوله الناس بفكرة جديدة.

الأستاذ محمد النمر (رئيس تحرير مجلة الواحة الفصلية):

الأفكار التي تفضلت بها في الحقيقة أفكار رائعة ونيرة، ولكن اسمح لي أمام هذا التفاؤل الكبير الذي غلف طرحك أن أبدي لك ظني في إشكالية اختيار معرض الرياض كنموذج للتحول الثقافي. لا أريد أن أكون متشائما، ولكني لم أجد حقيقة أن حجم المعرض قد وصل إلى ما تفضلتم به من الانفتاح، فقد منعت العشرات من دور النشر من بيروت وغيرها من المشاركة في اللحظة الأخيرة رغم أنها كانت مدرجة على القائمة، وهذا ما أعتبره نكسة ثقافية بكل المعايير.

أكرر أني لا أريد أن أكون سلبيا أو متشائما، ولكن الواقع يؤكد أن الحرية الإعلامية لا تزال مكبوتة. وقد تكون هناك إرادة جادة في التغيير لدى البعض، ولكن في الجهة المسيطرة على الإعلام في بلدنا لا تزال غير مستعدة لذلك.

المحاضر:

أنا شعرت بهذه النظرة الحزينة من التشاؤم، وأعرف أنها جاءت من تجربة أو واقع ربما أكون بعيدا عنه أو لم أعرفه أساسا، لكني أعطي أملا لنفسي على الأقل دون أن أفرضه على أحد بأن وخزة إبرة في قماش مساحته عشرة أمتار طولا وعرضا تخلف أثرا كيميائيا وفيزيائيا وميكانيكيا، فقد تتسع وتشمل كل الرداء. وهذا هو المنطلق الذي انطلقت منه حقيقة أستاذ محمد، وما تعاني منه نعاني منه نحن أيضا ككتاب نواجه انتقادات لا نملك أمامها أن نحاجج.

الدكتور سعود البلوي (كاتب في صحيفة الوطن):

بودي أن أعلق على ما أورده الدكتور علي حول مفهوم الحضارة والثقافة. أنا أرى أن الثقافة العربية لا تزال تواجه إشكالية مفاهيم ثلاثة هي الثقافة والحضارة والمثقف. ولأن مفردة الثقافة مستوردة كما تفضل الدكتور علي، فإنه لم يستطع الفكر العربي التعامل معها، ورغم أن طه حسين - مثلا- قد تناولها في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)، وتناولها سلامة موسى في بدايات عصر التنوير العربي إن جاز التعبير، كما تناولها غيرهم؛ إلا إنا لا نزال ندور فيما دار فيه هؤلاء المثقفون والمفكرون الأوائل.

وقد حاول علماء (الفروغلوجيا) تحديد القضية أو العلاقة بين الثقافة والحضارة لما يرونه من العلاقة بينهما، والقضية برأيي قضية فلسفية أصلا تعيدنا إلى الخلاف في وجهة النظر بين فيلسوفين كبيرين - إن جاز التعبير - هما ماركس وهيغل، فماركس يرى أن المادة أصل الأشياء، بينما يرى هيغل أن الفكر أصل الأشياء.

تمثل الثقافة بمعناها الواسع والشامل النشاطات المعنوية والعادات والتقاليد، لكن المنتج الثقافي هو ما يعبر عنه بمصطلح الحضارة؛ والحضارة التي هي أسلوب الحياة الأكثر تطورا تتبلور وتنعكس بفعل الثقافة التي هي أسلوب الحياة الأكثر تطورا أو تخلفا.

فيما يخص معرض الكتاب، أنا زرت المعرض في مرتي تنظيمه، ورغم أني لم أجد فيه تغييرا كبيرا وتطورا ملموسا، إلا إني متفائل لما أجده فيه من نقلة كبيرة حقيقة. فقد وضعنا أمام منتجات فلسفية فكرية بعد أن كنا محصورين في أيديولوجيا معينة لخمسين سنة مضت، وهذا يعيدنا إلى قضية المثاقفة التي يعيدنا القبول بها لأمر هام هو التعددية والاختلاف، وهو الحل الأمثل لمشكلة أحادية الثقافة العربية التي نعيشها.

أيضا أنا متفائل من ناحية الإنتاج، والإنتاج الأدبي خصوصا؛ فكما تفضل الدكتور علي حول وجود إحصائية بأن الكثير من المنتجات الأدبية في هذه السنة خصوصا كتبت لروائيين وروائيات وأدباء سعوديون ولأول مرة يكتبون، هذا دليل أن المجتمع يعيش فسحة بعد احتقان، وهذا ما يحتاج له ليساهم في عملية التغيير بعيدا عن التشاؤم الذي لا أمل من ورائه.

الأستاذ سعيد الخباز (رجل أعمال):

أشكرك على طرحك دكتور، واسمح لي أن أكاشفك فيما وجدتني أختلف معك فيه اختلافا كبيرا. تناولتَ الثقافة كمنتج ودستور، وأعتقد أنها منتج ومحرك، والأمر الذي يجب أن لا نغفله فيها كوننا نستخلص العقل الجمعي وسلوك الأفراد في بعض الأوقات بعضا من بعض. وحين نتكلم عن القيم في مجتمع ما، فإننا نخلط بينها في كثير من الأوقات وبين المبادئ، رغم الفرق بينهما في كون المبادئ متغيرة أمام ثبات القيم، انطلاقا من تداعيات العصر والثقافة. كذلك، تحدثت عن الفصل بين المعرفة وبين الثقافة، وأجد أننا حين نتكلم عن علم المعرفة كمدخل للمعرفة، وبين ثقافة المجتمع، فإن ثمة علاقة غير واضحة بينهما.

من جهة أخرى، أتساءل عن التفكيك، هل هو تفكيك للمجتمع أو تفكيك للفرد؟ أو أن هناك ثقافة فردية كما تطرق لها الدكتور توفيق بمعنى مغلوب، الأمر الذي يؤدي إلى أن ينعكس معرفة الفرد على ثقافة المجتمع حين نتكلم عن الثقافة كسلوك.

ذكرت فيما ذكرت أيضا أن هناك مجتمعات بدون حضارة، وأنا أختلف معك في ذلك، إلا إذا قسمنا المجتمع إلى جماعات صغيرة وافترضنا أن هذا القسم من المجتمع لا يمثل حضارة شاملة.

قلت أيضا إننا أمة عربية واحدة ولسنا كذلك، حيث لا تجمعنا لغة واحدة كأبسط دليل، لذا علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها، وقد تناولت موضوع اللغة بما أثار فيّ سؤالا حول الحديث عن اللغة كلغة فكر ألا تتصف بالشمولية، وأن التغيير توصيف أعمق.

المحاضر:

الحقيقة أنه يبدو أننا لا نختلف في جوهر المسألة بقدر ما نختلف فلسفيا في كيفية وضع النقاط عليها.

كلانا متأثر بقضية اللغة، معرفتك الأجنبية التي أعدت صياغتها لي بالعربية، وهنا مكمن المشكلة، الأمر الذي اكتشفته بمجرد حديثك عن قضية المنتج والمحرك.

اللغة العربية ناضجة، ونضجها يكمن في استعدادها لاستقبال المنتج الحضاري الآخر. ولكنا جميعا يستهوينا المنتج الغربي، ويروق لنا إتباعه حتى في فلسفتنا للمواقف، ورغم حاجتنا الملحة لهذا المنتج، فضلا عن حاجتنا لنكون أجرأ مما نحن عليه في التعاطي معه، إلا إنا لا نبذل جهدا في تكييفه ليتوافق مع واقعنا اعتبارا للتقاليد كأبسط عذر.

ختاما، أشكر جميع المداخلات. استفدت كثيرا وكلكم أساتذة لي، ما شرفتموني به وأنتم وضعتموني في هذا المكان وحملتموني مسؤولية كبيرة لكني كل ما أطمح له حقيقة وهذا هو شعوري أن أكون قدمت شيئا أثار حفيظتكم من خلال طرح تساؤل أو تعليق. والحقيقة هذا ما أشعر به في العيون وأستشعره فيمن تحدثوا. ولو اتفقنا جميعا لأصبحنا نسخة واحدة وفكر واحد، وهذا لن يفيدنا ولن يفيد مجتمعنا، وكلنا أمل إن شاء الله أن تتحقق كل طموحاتنا وأفكارنا.

الأستاذ جعفر الشايب (راعي المنتدى):

أكرر شكري لسعادة الدكتور علي الخشيبان على تشريفه لنا في المنطقة، وحضوره مندوبا عن الهيئة العليا للسياحة، وأتمنى أن تثمر هذه الزيارة بأفكار وتبادل مشاريع إن شاء الله، كما أثمن هذا الجهد الطيب في المحاضرة الممتازة والرائعة التي أثارت في الحقيقة مجموعة من التساؤلات المهمة التي تحتاج لوقت أطول لمناقشتها، ولكن نتمنى إن شاء الله أن تتكرر هذه الزيارات وهذه اللقاءات الطيبة.

أشكركم جميعا، وأخص بشكري الأخوة الذين رافقوا الدكتور في هذه الزيارة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.